القاعدة الثانية

معرفة فضل المواسم ومنة الله فيها وفرصة العبد منها

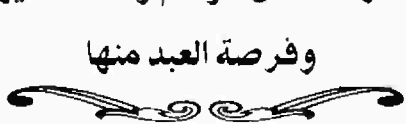

قال ابن رجب رحمه الله: وجعل الله سبحانه وتعالى لبعض الشهور فضلاً على بعض، كما قال تعالى: ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ [البقرة: ١٩٧] وقال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] كما جعل بعض الأيام والليالي أفضل من بعض، وجعل ليلة القدر خيراً من ألف شهر، وأقسم بالعشر وهي عشر ذي الحجة على الصحيح (وما في هذه المواسم الفاضلة موسمٌ إلا ولله تعالى فيه وظيفة من وظائف طاعته، يُتقرَّب بها إليه، ولله فيه لطيفة من لطائف نفحاته، يصيب بها من يعود بفضله ورحمته عليه، فالسعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات،

وتقرب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من النار وما فيها من اللفحات، وقد خرّج ابن أبي الدنيا والطبراني وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات ربكم فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده وسلوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمّن روعاتكم» (ضعيف الجامع).

وفي الطبراني من حديث محمد بن مسلمة مرفوعًا: «إن لله في أيام الدهر نفحات فتعرضوا لها، فلعل أحدكم أن تصيبه نفحة فلا يشقى بعدها أبدًا» (صحيح الجامع).

وفي مسند الإمام أحمد عن عقبة بن عامر عن النبيِّ ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا يُختم عليه» (صحيح الجامع).

روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن مجاهد قال: ما من يوم إلا يقول: ابنَ آدم قد دخلْتُ عليك اليوم ولن أرجع إليك بعد اليوم فانظر ماذا تعمل فيّ، فإذا انقضى طواه، ثم يختم عليه فلا يفك حتى يكون الله هو الذي يَفُضُّ ذلك الخاتم

يوم القيامة، ويقول الله حين ينقضي: الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها، ولا ليلةٍ تدخل على الناس إلا قالت كذلك، وبإسناده (أي ابن أبي الدنيا) عن مالك بن دينار.

وعن الحسن قال: ليس يوم يأتي من أيام الدنيا إلا يتكلم، يقول: يا أيها الناس: إني يوم جديد وإني على ما يُعمل فيّ شهيد، وإني لو قد غربت الشمس لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة. وعنه أنه كان يقول: يا ابن آدم اليومُ ضيفك، والضيفُ مرتحل يحمدَك أو يذمُّك، وكذلك ليلتك. وبإسناده عن بكر المزني أنه قال: ما من يوم أخرجه الله إلى أهل الدنيا إلا يُنادي: ابن آدم اغتنمني لعله لا يوم لك بعدي، ولا ليلةٍ إلا تُنادي: ابن آدم اغتنمني، لعله لا ليلة لك بعدي.

وعن عمر بن ذرٍّ أنه كان يقول: اعملوا لأنفسكم رحمكم الله في هذا الليل وسواده، فإن المغبونَ من غبن خير الليل والنهار، والمحرومَ من حرم خيرَهُمَا، وإنما جُعلا سبيلاً للمؤمنين إلى طاعة ربهم ووبالاً على الآخرين للغفلة عن

أنفسهم، فأَحْيُوا الله أنفسكم بذكره، فإنما تحيا القلوب بذكر الله. اهـ[١].

واعلم - رحمني الله وإياك - أن معرفة فضل المواسم يكون بمطالعة ما ورد فيها من فضل وبما يحصل للعبد من الجزاء إذا اجتهد.

ويمكنك مطالعة هذه النصوص والآثار في الكتب المعنية بالفضائل كرياض الصالحين للنووي والترغيب والترهيب للمنذري ولطائف المعارف لابن رجب.

---

(١) «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف» (ص ٤٠) فما بعدها بتصرف يسير.

القاعدة الثالثة

تمارين العزيمة والهمة

إذا كان الأصوليون يعرِّفون العزيمة بأنها ما بُنَيت على خلاف التيسير كالصوم في السفر لمن أطاقه، وعدم التلفظ بكلمة الكفر وإن قتل، فإن العزيمة عند أهل السلوك لها حظ من هذا المعنى، فالعزيمة أو العزم عندهم هو استجماع قوى الإرادة على الفعل.

وكأن صاحب العزيمة لا رخصة له في التخلف عن القيام بالمهمة، بل هو مطالب باستجماع قوته وشحذها حتى يطيق الأداء.

وغالب من تكلم في هذا الباب لم يشر إلى أهمية تمارين العزيمة أي تحفيز الهمة لِتَقْوَى على المجاهدة في الأزمنة الفاضلة، مع أن الشرع أشار إلى ذلك باستحباب صوم شعبان لتتأهب النفس وتقوى على صيام رمضان بسهولة.

وكان من هدي النبيِّ ﷺ في قيام الليل أن يبدأ بركعتين خفيفتين حتى تتريض نفسه ولا تضجر.

وأشار الشاطبي في الموافقات إلى أن السنن والنوافل بمثابة التوطئة وإعداد النفس للدخول في الفريضة على الوجه الأكمل.

وكثير من الناس يعقد الآمال بفعل جملة من الطاعات في شهر رمضان فإذا ما أتى الشهر (أصبح خبيث النفس كسلان) وذلك لأنه لم يحل عقدة العادة والكسل والقعود.

والعزيمة لا تكون إلا فيما لا تألفه النفوس أو لا تحبه فتحتاج النفس إلى المجاهدة في معرفة فضل ذلك العمل المكروه إليها ثم في مجاهدة واردات العجز والكسل، ولذلك قال الله عن الجهاد: ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وتمارين العزيمة من صميم القيام بحق شهر رمضان وتحصيل المغفرة فيه لأنه لا قوة للنفس ما لم تُعد العدة للطاعة قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً**

وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) ﴾ [التوبة : ٩].

قال ابن الخراط - في كتابه الصلاة والتهجد - كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز - رحمهما الله - : أما بعد،، فإنه من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر، ومن نظر العواقب نجا، ومن أطاع فهو أفضل، ومن حَلُم غنم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، فإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فَسَلْ، وإذا غضبت فأمسك: واعلم أن أفضل الأعمال ما أُكرهت النفسُ عليه. وقد اعترض بعض العلماء بظاهر قول رسول الله ﷺ : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المُنْبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى »(١)، وبقوله ﷺ : « اكلفوا من العمل ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا »(٢)، وبالحديث الآخر: « ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر أو كسل فليقعد »(٣)، ولم يُرِدْ عليه السلام ألا تعمل حتى تنشط بحسّك للعمل،

---

(١) رواه البيهقي في السنن وفيه ضعف.

(٢) (٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد.

وحتى تقبل عليه وتبادر إليه، فإن النفس كسلى ثقيلة عن فعل الخير، بطيئة النهوض إلى أعمال البر، فلو لم تصلّ مثلاً حتى تدعوك نفسك للصلاة وحتى تنشط إليها وتخف عليها لما صليت إلا قليلاً، وربما لم تصل معها أبداً، ولا قامت لك عن فراشها ولا تركت راحَتها ولا لذيذَ نومها.

وإنما أمر عليه السلام بالرفق وحذر من الإفراط في التعب الذي يقطع بصاحبه ويُقعده، وفي قوله ﷺ: «اكْلَفوا من الأعمال ما تطيقون» ما يدل على الاجتهاد ويبيح أخذ النفس بما تكره منه، فإن الإنسان قد يكره على الضرب (النوع) من العمل ويكسَل عنه، فإذا كُلِّفَهُ أطاقه وقام به وتحمل المشقة فيه مع كراهيته له وكسله عنه، فلابد من الحمل على النفس وأخذها بالجد والكد، وتخويفها بأن تُسْبَقَ إلى الله عزَّ وجلَّ، وتحذيرها ن أن يُستأثر دونها بما عند الله، وأن يَصِلَ العمل بالعمل والاجتهاد حتى يَصِلَ إلى الحد الذي حذَّر منه رسول الله ﷺ وهو الذي يخاف معه الانقطاع والانبتات، وفي الخبر: «الخيرة عادة والشر

الحاجة»[١]، وقال أبو الدرداء لرجل يقال له صَبيح: «يا صبيح تعود العبادة فإن لها عادة، وإنه ليس على الأرض شيءٌ أثقل عليها من كافر». وأما قوله ﷺ: «ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر أو كسل فليقعد» فما أراد - والله أعلم - أن تصلي ما دمت على نشاط فإذا خالطك الكسل أن تترك الصلاة، وإنما أراد ﷺ الكسل الذي لايقدر معه صاحبه على شيء إلا بعد جهد جهيد وحمل على النفس شديد، حتى لو قيل مثلاً صلِّ وخذ كذا وكذا - لثواب حاضر يُعرض عليه ويُرغَّب فيه - لم يقدر فهذا هو الكسل الذي يُنهَى صاحبه عن العمل معه مخافة الانقطاع وترك العمل، هذا أو نحوه، والله أعلم، والدليل على هذا القول تكلُّفه - عليه السلام - الصلاة حتى تشققت قدماه، وهذا إنما هو في النافلة وأما الفريضة فتُصلّى على كل حال، في الصحة والمرض يصليهما قائمًا أو قاعداً أو مضطجعًا أو مكتوفًا أو كيف كان وكيفما أمكن اهـ. من كتاب الصلاة والتهجد لابن الخراط[٢].

---

(١) رواه ابن حبان مرفوعًا بإسناد حسن. (٢) «الصالة والتهجد» (ص ٣٠٥).

ولعل هذا التحقيق النفيس قد جلّى لك كوامن أسرار، فكن منها على ذُكْر فإن هذا المقام من أنفس ما تجده في كتب الزهد والرقائق والسلوك.

(لقد فقه سلفنا الصالحون عن الله أمره. وتدبروا في حقيقة الدنيا، ومصيرها إلى الآخرة، فاستوحشوا من فتنتها، وتجافت جنوبهم عن مضاجعها، وتناءت قلوبهم من مطامعها، وارتفعت همتهم على السفاسف فلا تراهم إلا صوّامين قوّامين، باكين والهين، ولقد حفلت تراجمهم بأخبار زاخرة تشي بعلوّ همتهم في التوبة والاستقامة، وقوة عزيمتهم في العبادة والإخبات، وهاك طرفًا من عباراتهم وعباداتهم التي تدل على تشميرهم وعزيمتهم وهمتهم:

قال الحسن: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياه فألقها في نحره.

وقال وهيب بن الورد: إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل، وقال الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان التركستاني: ما بلغني عن أحد من الناس أنه تعبد عبادة إلا تعبدت نظيرها وزدت عليه.

وقال أحد العباد: لو أن رجلاً سمع برجل هو أطوع لله منه فمات ذلك الرجل غماً ما كان ذلك بكثير.

وقيل لنافع: ما كان ابن عمر يفعل في منزله؟ قال: الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما.

وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة الجماعة صام يوماً، وأحيا ليلة، وأعتق رقبةً.

واجتهد أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قبل موته اجتهاداً شديداً، فقيل له: لو أمسكت أو رَفقت بنفسك بعض الرفق؟ فقال: إن الخيل إذا أُرسلت فقاربت رأسَ مجراها أخرجت جميع ما عندها، والذي بقيَ من أجَلي أقلُّ من ذلك، قال: فلم يزل على ذلك حتى مات.

وعن قتادة قال: قال مورق العجلي: ما وجدت للمؤمن في الدنيا مثلاً إلا مثل رجلٍ على خشبة في البحر، وهو يقول: «يارب يارب» لعل الله أن ينجيه.

وعن أسامة قال: كان من يرى سفيان الثوري يراه كأنه في سفينة يخاف الغرق، أكثر ما تسمعه يقول: «يارب سلّم سلّم».

وعن جعفر: دخلنا على أبي التياح نعوده، فقال: والله

إنه لينبغي للرجل المسلم أن يزيده ما يرى في الناس من التهاون بأمر الله أن يزيده ذلك جداً واجتهاداً، ثم بكى.

وعن فاطمة بنت عبد الملك زوج أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله قالت: ما رأيت أحداً أكثر صلاة ولا صيامًا منه ولا أحداً أشد فَرقًا من ربه منه، كان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه ثم ينتبه فلا يزال يبكي تغلبه عيناه، ولقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور من الماء ويجلس يبكي فأطرح عليه اللحاف.

وعن المغيرة بن حكيم قال: قالت فاطمة بنت عبد الملك يا مغيرة، قد يكون من الرجال من هو أكثر صلاة وصياماً من عمر ابن عبد العزيز ولكني لم أر من الناس أحداً قط كان أشد خوفاً من ربه من عمر، كان إذا دخل البيت ألقى نفسه في مسجده، فلا يزال يبكي ويدعو حتى تغلبه عيناه، ثم يستقيظ فيفعل مثل ذلك ليلته جمعاء.

وعن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع أنه دخل على فاطمة بنت عبد الملك فقال: ألا تخبريني عن عمر؟ قالت: ما أعلم أنه اغتسل من جنابة ولا احتلام منذ استُخلف.

وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة، ويصوم في الحر حتى يخضر جسده ويصفر، فكان علقمة بن قيس يقول له: لِمَ تعذب نفسك؟ فيقول: كرامتهَا أريد، وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلي حتى يسقط، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له: إن الله عزَّ وجلَّ لم يأمرك بكل هذا، فقال: إنما أنا عبدٌ مملوك لا أدع من الاستكانة شيئًا إلا جئت به.

وقيل لعامر بن عبد الله: كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر؟ فقال: هل هو إلا أني صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار؟ وليس في ذلك خطير أمر. وكان إذا جاء الليل قال: أَذْهَبَ حرُ النار النومَ، فما ينام حتى يصبح.

وعن الحسن قال: قال عامر بن قيس لقوم ذكروا الدنيا: وإنكم لتهتمون؟ أما والله لئن استطعت لأجعلنهما همًا واحداً، قال: ففعل والله ذلك حتي لحق بالله.

وعن أحمد بن حرب قال: يا عجبًا لمن يعرف أن الجنة تُزيَّن فوقه والنار تُسَعَّرُ تحته كيف ينام بينهما؟

وكان أبو مسلم الخولاني قد علّق سوطًا في مسجد بيته يخوّف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومي فوالله لأزحفن بك زحفًا، حتى يكون الكلل منك لا مني، فإذا دخلت الفترة (الفتور) تناول سوطه وضرب به ساقه، وقال: أنت أولى بالضرب من دابتي، وكان يقول: أيظن أصحاب محمّد ﷺ أن يستأثروا به دوننا؟ كلا والله لتُزاحمنّهم عليه زحامًا حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً.

وكان منصور بن المعتمر إذا رأيتَه قلتَ: رجلٌ أصيب بمصيبة، منكسر الطرف، منخفض الصوت، رطْب العينين، إن حركته جاءت عيناه بأربع، ولقد قالت له أمه: ماذا الذي تصنع بنفسك؟ تبكي الليل عامته لا تسكت؟ لعلك يا بني أصبتَ نفسًا، لعلك قتلت قتيلاً، فيقول: يا أمه، أنا أعلم بما صنعتْ نفسي.

وقال هُشيم تلميذ منصور بن زاذان: كان لو قيل له إن ملك الموت على الباب ما عنده زيادة في العمل.

وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام، وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له: القيامة غدًا ما وجد

مزيداً، وكان يقول: اللَّهُمَّ إنِّي أحب لقاءك فأحب لقائي.

وعن موسى بن إسماعيل قال: لو قلت لكم إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكًا قط صدقْتُكم، كان مشغولاً بنفسه، إما أن يحدث وإما أن يقرأ وإما أن يسبح وإما أن يصلي، كان قد قسم النهار على هذه الأعمال.

وعن وكيعٍ قال: كان الأعمش قريبًا من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى، واختلفت إليه أكثر من ستين سنة فما رأيته يقضي ركعة.

وعن حماد بن سلمة قال: ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يطاع الله عزَّ وجلَّ فيها إلا وجدناه مطيعًا، إن كان في ساعة صلاة وجدناه مصليًا، وإن لم تكن ساعة صلاة وجدناه إما متوضئًا أو عائدًا أو مشيعًا لجنازة أو قاعدًا في المسجد، قال: فكنَّا نرى أنه لا يحسن يعصي الله عزَّ وجلَّ.

فهؤلاء هم أنموذج السالكين الصادقين.

فتشبهوا بهم إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاحُ

وهذه كانت سيرتهم في مجاهدة النفس ومغالبة الهوى فاستحضرها عند هبوب ريح الكسل وسل الله حُسن العمل.

القاعدة الرابعة

نبذ البطالة والبطالين

ومصاحبة ذوي الهمم

ليس هناك أشأم على السائر إلى الله من البطالة وصحبة البطالين، فالصاحب ساحب، والقرين بالمقارَن يقتدي.

(والبرهان الذي يعطيه السالكون علامة لصدقهم أنهم يأبون إلا الهجرة والانضمام إلى القافلة ويذرون كل رفيق يثبطهم ويزين لهم إيثار السلامة، ينتفضون ويهجرون كل قاعد، ويهاجرون مع المهاجرين إلى الله، ويطرحون أغلال الشهوات وحب الأموال عن قلوبهم)[١].

ولما أراد قاتل المائة أن يتوب حقًا قيل له: اترك أرضك فإنها أرض سوء واذهب إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم. متفقٌ عليه. فلابد لمن أراد تحصيل المغفرة من شهر رمضان أن يترك المُخلِدين إلى الأرض ويزامل ذوي الهمم العالية كما قال الجنيد: سيروا مع الهمم العالية.

وقد أمر الله خير الخلق ﷺ بصحبة المجدّين في السير إلى الله وترك العافلين فقال عزَّ من قائل: ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)** ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ** ﴾ [لقمان: ١٥]، وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)** ﴾ [التوبة: ١١٩].

فلو صحب الإنسان من يظنون أن قيام ساعة من الليل إنجاز باهر فهو مغبون لن يعْدُو قدره، بل سيظل راضيًا عن نفسه مانًّا على ربه بتلك الدقائق التي أجهد نفسه فيها ولكنه لو رأى الأوتاد من حوله تقف الساعات الطوال في تهجد وتبتل وبكاء (وهم مُتَقَالُّوْنَها) فأقل أحواله أن يظل حسيرًا كسيرًا على تقصيره مرددًا:

أنا العبد المخلَّفُ عن أُناسٍ حوَوْا من كل معروفٍ نصيبا

ونبذ البطالة هجِّيرَى الناسك في كل زمان، وقد قيلَ: الراحة للرجال غفلة.

وقال شعبة بن الحجاج البصري أمير المؤمنين في الحديث: لا تقعدوا فُرْاغًا فإن الموت يطلبكم.

وقال الشافعي: طلب الراحة في الدنيا لا يصح لأهل المروءات، فإن أحدهم لم يزل تعبان في كل زمان.

وقيل لأحد الزهاد: كيف السبيل ليكون المرء من صفوة الله؟ فقال: إذا خلع الراحة وأعطى المجهود في الطاعة.

وقيل للإمام أحمد: متى يجد العبد طعم الراحة؟ فقال: عند أول قدم يضعها في الجنة.

أما البحث عن ذوي الهمم والمروءات وأصحاب السِّرِّ مع الله فهي بُغية كل مخلص في سيره إلى الله، قال زين العابدين: إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه.

وقال الحسن البصري: إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا، لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة، قال الشاعر:

لعمرك ما مالُ الفتى بذخيرةٍ ولكنَّ إخوان الثقات الذخائر

وكان من من وصايا السلف انتقاء الصحبة، قال الحسن البصري: إن لك من خليلك نصيبًا، وإن لك نصيبًا من ذكر من أحببت، فانتقوا الإخوان والأصحاب والمجالس.

فاجتهد أيها الأريب باحثًا عن أعوان المسير أصحاب الهمم العالية، ابحث عنهم في المساجد بالضرورة، اسأل عنهم في مجالس التقاة، لا تستبعد المفاوز لتصل إليهم ولو اقتضى الأمر أن تعلن في الصحف السيارة.

(مطلوبٌ: معينٌ على الخير في شهر رمضان)

يا له من إعلان ..

مع هذه الصحبة تتعاونون على تدارك الثواني والدقائق، تحاسبون أنفسكم على الزفرات والأوقات الغاليات، لو فرط أحدكم في صلاة الجماعة وجد من يستحثه على عقاب نفسه كما كان يفعل ابن عمر.

ترى البطالين يصلون التراويح سويعة ثم يسهرون ويسمرون ويسمدون وتضيع عليهم صلاة الفجر ﴿ **وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** (١٠٤) ﴾ [الكهف: ١٠٤].

لا أيها الرشيد، تعال أخبرك بحال من اجتمعوا على السير إلى الله: أوقاتهم بالذكر وتلاوة القرآن معمورة، مساجدهم تهتز بضجيج البكاء من خشية الله، تراهم ذابلين من خوف الآخرة، وعند العبادة تراهم رواسي شامخات كأنهم ما خلقوا إلا للطاعة، ليس في قاموسهم: فاتتني صلاة الجماعة، دع عنك أصل الصلاة، تراهم في قيامهم وقعودهم خاشعين كأنهم على حياء من الله يقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

ليلهم، وما أدراك ما ليلهم؟ نحيب الثكالى يتوارى عند نشجيهم ﴿ **كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ** ﴿٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٦]، صلاتهم في ظلام تُجلَّلُ بأنوار الكرامة، فهم في حللها يتبخترون، وببهاء مناجاتهم لربهم يتيهون، محى استغفار الأسحار سخائم قلوبهم، فهم في نعيم الأُنس يتقلبون، وبلذيذ الخطاب يستمتعون، وهذا (الحفظي) يخبرنا:

والجنيد يقول طاحتْ ... كل علْمٍ وإشارةً

ورسـومـاتٌ تلاشتْ وانْمحَتْ تلك العبارة

ورُكَيْعَاتٌ توالت سَحَرًا فيها البشارة

ورأينا في المآل ذلك الكنز الدّفينا

فاز من قام الليالي بصلاة الخاشعينا

واعلم أيها النبيه أن من تمام سعيك لتحصيل المغفرة من شهر رمضان أن تبحث لك عن شيخ مربّ لبيب، قد يكون ظاهرًا أو خفيًا، قد يكون عالمًا أو طالب علم، ولكنك من لَحْظه ولَفْظه تعلم أنه صاحب سرّ مع الله، ومثل هؤلاء يشتهر أمرهم غالبًا بين الناس، وإن بالغوا في التخفي فلن تعدم من يدلك عليهم إذا أكثرت التّسآل عنهم.

وشرط انتفاعك بهم أن يكونوا من أهل السنة والنُسك السلفي، فهؤلاء هم أمناء الأمة وهداتها.

ومثل هؤلاء تنتفع بهديهم ودلّهم وسَمْتهم وبفعالهم قبل أقوالهم، تراهم في الصلاة نموذجًا للخضوع والتبتل والتنسك، تكبيرتهم في الصلاة وإن خفتت بها أصواتهم فكأنها صرخة في مجرّات الكون بحقيقة أكبرية الله.

ركوعهم وسجودهم رمز السجود لكل الكائنات، إذا أبصرت عيناك عبادتهم وددت لو سبحت الخليقة كلها بتسبيحهم، ولعلها تفعل، أما قال الله عن داود: ﴿ **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩)** ﴾ [ص: ١٨ – ١٩].

اللَّهم إنَّا نسْألك صحبة الصالحين وألحقنا بهم في جنات النعيم.

القاعدة الخامسة

إعداد بيان عن عيوبك وذنوبك المستعصية وعاداتك القارة في سويداء فؤادك لتبدأ علاجها جديًا في رمضان وكذا إعداد قائمة بالطاعة التي ستجتهد في أدائها لتحاسب نفسك بعد ذلك عليها

قال ﷺ: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا» رواه البخاري.

لأن همة أبناء الآخرة تأبى إلا الكمال، وأقل نقص يعدونه أعظم عيب، قال الشاعر:

ولم أر في عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام

وعلى قدر نفاسة الهمة تشرئب الأعناق، وعلى قدر خساستها تَثَّاقَل إلى الأرض: قال الشاعر

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

وهذا ردٌّ على من يقول: ومن لنا بمعصوم عن عيب غير الأنبياء ويردد:

من ذا الذي ترجى سجاياه كلها كفى بالمرء نبلاً أن تعد معايبه

فإن هذه القاعدة في التعامل مع الناس، أما معاملة النفس (أيها الأريب) فهي مبنية على التهمة، وعلى طلب الكمال وعدم الرضا بالدون:

فإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسامُ

فلذاك السالك دومًا يستكمل عناصر الإيمان، كلما علم أن ثمة ثلمة، يعزم لذلك عزْمة (تأمل) فإذا شرع في الاستكمال: أدرك ضرورة الصفاء فيه، وأن يَرْفَأَ ويَرتُقَ بجنس ما وهبه الله من خير آنفًا لئلا يفضحه النَّشَاز (وجود العيب مع خصال الحُسن) فيعزم لذلك عزمة أخرى فثالثة تستدعي رابعة في نهضات متوالية حتي يصيب مراده[1]. (أي استكمال عناصر الإيمان)

هذه العزمات المتوالية تستحثها في كل زمان، ولكن

(١) «العوائق» (ص ٣٨).

قد يَتَسَرْطَن عيب ويَتجذَّر ذنب وتتأصل عادة، ولا يجدي مع مثل هذا أساليب علاج تقليدية، إنما هي عملية جراحية استئصالية تتطلب حِمْيةً متوفرة في شهر رمضان، وهِمَّةً شَحَذْتَهَا قبيل هذا الزمان المبارك، **فما بقي إلا أن تضع مبضع العزيمة الحاد وبجَلَد وصبر على آلام القطع تستأصل تلك الأورام الناهشة في نسيج إيمانك وتقواك، لا تستعمل أي مخدر**، فإن شأن المخدر أن يسافر بك في سمادير السكارى وأوهام الخيارى، فتفيق دون أن تدري بأن الورم لم يُستأصل بكامله، بل بقيت منه مُضغةً متوارية ريثما تَتسَرَطْن ثانية.

فإذا كنت مدخناً أو مبتلىً بالنظر أو الوسوسة أو العشق فبادر إلى تقييد كل هذا البلاء وابدأ العمليات الجراحية في شهر رمضان ولا تتذرع بالتدرج الذي سميناه مخدراً، بل اهجر الذنب وقاطع المعصية وابتُر العادة **ولا تجزع من غزارة النزيف وشدة الآلام، فإنه ثمن العلاج الناجع، وضرورة الشفاء البات الذي لا يغادر سقماً.**

ووجه كون شهر رمضان فرصةً سانحة لعلاج الآفات والمعاصي والعادات، أنه شهر حِمْية أي امتناع عن الشهوات (طعام وجِماع) والشهوات مادة النشوز والعصيان، كما أن الشياطين فيه تصفّد وهم أصل كل بلاء يصيب ابن آدم، أضف إلى ذلك: جَمَاعية الطاعة، حيث لا يبصر الصائم في الغالب إلا أمةً تصوم وتتسابق إلى الخيرات فتضعف همته في المعصية وتقوى في الطاعة، فهذه عناصر ثلاثة مهمة تتضافر مع عزيمة النفس الصادقة للإصلاح فيتولّد طقس صحي وظروف مناسبة لاستئصال أي داء.

وقبل كل ذلك وبعده لا يجوز أن ننسى ونغفل عن ديوان العتقاء والتائبين والمقبولين الذي يفتحه الرب جلَّ وعلا في هذا الشهر، وبنظرة عابرة إلى جمهور المتدينين تجد بداياتهم كانت بعبرات هاطلة في سكون ليلةٍ ذات نفحات من ليالي رمضان.

وما لم تتحفّز الهمم لعلاج الآفات في هذا الشهر لن تبقى فرصة لأولئك السالكين أن يبرءوا، فمن حرم بركة

رمضان ولم يبرأ من عيوب نفسه فيه، فأي زمان آخر يستظل ببركته.

وفي صحيح ابن خزيمة أن جبريل عليه السلام قال: «من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فدخل النار فأبعده الله، قل آمين، فقلتك (أي النبيُّ ﷺ قال»: آمين». الحديث صحيح.

وروى الطبراني بسندٍ ضعيف عن النبيِّ ﷺ: «بعداً لمن أدرك رمضان فلم يغفر له، إذا لم يغفر له فمتى؟» قال: وروى الطبراني بإسنادٍ فيه نظر عن عبادة بن الصامت مرفوعاً: «أتاكم رمضان شهر بركة يغشاكم الله فيه فينزل الرحمة ويحُطُّ الخطايا ويستجيب فيه الدعاء، ينظر الله تعالى إلى تنافسكم فيه ويباهي بكم ملائكته فأروا الله من أنفسكم خيراً فإن الشقي من حُرِمَ فيه رحمة الله» الحديث.

أما استحضار أنواع الطاعات وتقييدها وتوطين العزيمة على أدائها في رمضان فهو من أهم ما يُستَعدُّ له في هذا الشهر، وعلى هذا الأصل تحمل كل النصوص الواردة في

فضل رمضان والاجتهاد فيه، فمعظمها صريح أو ظاهر في أنه قيل قبل رمضان أو في أوله.

ويمنّي بعض الخياليين نفسه بأماني العزيمة التي لا تعدو أن تكون سراباً يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

فتراه يحلم أحلامًا وردية بأن يجتهد في هذا الشهر اجتهاداً عظيمًا، وتراه يرسم لنفسه صور الجلال وأبهة الولاية، فإذا ما هجم الشهر، قال المسكين: اليوم خمر، وغداً أمر.

ولو أن هؤلاء كانت لهم قبل شهر رمضان جولات في ميادين الاجتهاد في الطاعة لأنسوا من نفوسهم خيراً لكنهم طمعوا في نوال القُرْب ولما يستكملوا زاد المسير كمثل من ذهب إلى السوق بلا مال فلا يجهد إذا نفسه في المساومة بل يقال له: تنكب لا يقطرك الزحام.

لما قال أنس بن النضر لرسول الله ﷺ بعد غزوة بدر: يا رسول الله، غبتُ عن أول قتال قاتلت فيه المشركين، والله لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، ثم رووا

لنا أنهم وجدوه في أُحد صريعًا به بضع وستون ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم؛ علمنا ما أضمر الرجل.

ولما قال ذلك الصحابي: يا رسول الله ما بايعتك إلا على سهم يدخل ههنا فأدخل الجنة، قال له الرسول ﷺ: «إن تَصْدُق اللهَ يَصْدُقْكَ»، ثم رووا أن السهم دخل من موضع إشارته: علمنا ما عزم عليه الرجل.

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ
وتعظُم في عين الصغير صغارُها وتصغُر في عين العظيم العظائمُ